حدود الفنون وحكاية الإلتزام ..

بقلم محيي الدين محمد

الالتزام هو حكاية قلقة ، له رأس واحد ، والف ذنب .. ولذلك يفهمه الجمهور على الف شكل ولون : فهو تارة التزام الكاتب وحده ، وهو اخرى التزام الجمهور وحده ، وهو ثالثة التزام الاثنين ، وهو رابعة التزام نصوصي خارج عن الارادتين ...

ولكننا لكي نفحص هذا الشيء ذا الالف وجه ، وجب ان نشرد عنه قليلا لنتأمل كيانه الكلي. فليس هو هذا الرداء الذي نوشك ان نرتديه ، ولا هو هذا القفاز .. انه وجوب معنوي ، دائم بين قطبين دائمين في الشك ، وما اسهل ما يتناوله احد القطبين مغيرا شكله على هواه ، ومشيئته ... فهو بدون حدود، وله الف زاوية تسع الف معنى.. فيمكنه ان يكون (الفهم) وحسب بالنسبة الى القاريء ، أفليس المطلوب هو الذي منه ؟! ويمكنه ان يكون (الوضوح)بالنسبة للكاتب ، وما الذي يصير اليه الكاتب بدون ذلك ؟! ويمكنه ايضا ان يصبح (الرباط) بين الكاتب وجمهوره ، وما هي العلاقة التي بينهما ان لم تكن في ذلك الرباط بالذات ؟!

وهكذا نلاحظ ان الغوص في صميمه يصبح مخاطرة صعبة ، ان لم تكن مستحيلة النتائج ...

فليس المطلوب هو ان نعيد ترديد هذا السؤال:ما المقصود من الالتزام ..؟! فذلك بالذات هو الذي سيجر علينا الافا من السخنات الغضبي والاعين الحمراء من الغيظ ..وليس المطلوب هو أن نحدده ايضا، فليس هو قبة البرلمان او المسجد الاقصى ..

ومن زمن بعيد كان للمعنويات هذاالسحرالطلسمي المجنون الذي يختلف في اتفه تفاصيله الملايين ... (فالحق) هذا البيانالصغير المنطقي يصبح نظرية قانونية لها معارضوها ومعارضو معارضيها ، ومفندوها ، ومحققوها ، ورافضوها .. ولها اكثر من ثلاثين نظرية فلسفية .. كل ذلك لانها ليست داخلة في نطاق الحواس ، فلايمكنني ان اضع حسابا معينا لها كما اضع حساباتي عن هرم زوسر ، او مبنى المجمع .. فمن يعارضني حين اعلن عن ارتفاع المجمع بألف قدم ؟! فاذا كنت معارضا فخذ اليك عدة قياسات واذهب .. اما عن الحق او الالتزام فذلك ما لا يشاركك فيه احد ابدا ، فاذا قلت الالتزام هو كذا اصبحت عدوا شخصيا لعشرة آلاف فارس من القراء ، مسلحين حتى اخمص القدم ، ولا يجمعهم سويا الا كونهم معارضين لرأيك .. ثم جهلهم لآراء بعض ..

اذن يصبح السؤال الضروري بدل ما المقصود من الالتزام .. هو :

هل كل الفنون تقبل الالتزام ؟!

هل يمكن للرسم ان يعلن عن الذي يعتبر داخلا في صميم النثر ؟! وهل يمكن ذلك للموسيقى ايضا ؟ واذا كان هذا صحيحا فما هو الفارق بين الموسيقى والكلمة المنثورة ؟! وبعبارة اخرى ، اذا كان للكلمة المنثورة ان تقول في بساطة: القومية العربية وجوب .. فهل يستطيع قول ذلك الرسم او النغم ؟!

هل يمكن للموسيقى ان تنقل المحدد الى الذهن ؟! وهل يمكن للوحة ان تعبر عن ذلك بدون ان تنقلب اعلانا فاضحا؟!

اذا حدث ــ جدلا ــ فوافقنا على ان الفنون كلها تعالج المشكلات نفسها التي تعرض لاي منها جابهتنا ــ لتأكيد ذلك ــ مصاعب عدة ، فما سر تعدد الفنون اذن ... واختلافها البنائي والجذري والشكلي ما دامت داخلة في نطاق واحد يلم شملها ؟ ولماذا تخاطب الموسيقى النفس وحدها بدون ان تجتاز عتبة الذهن بعكس الكلمة الفنية ؟! لماذا كان لها مجالها الذاتي الذي ينسحب عليها وحسب ؟! اليس لان طبيعتها تختلف عن طبائع الفنون الاخرى ؟ ولان طبيعتها تختلف عن طبيعة كافة الفنون ، كان لها مجالها الخصوصي الذي تمارس فيه وجودها.. ومن هنا امكن للملحن ان يغني بدون ان يفقد رشده الحسابي: «تورنا سورينتو»

المطلوب هو فن مصري . مصري جذريا .. طولا وعرضا ! !

ان هذه الدعوة الحانقة التي نطالع أمثالها كثيرا جدا ، في موجة النقد الحديثة ، والتي تجد لها مدافعين في عدد النمل ، تتوجه الى معارض الرسم ، والمؤلفات الموسيقية أكثر ما تتوجه ..

« آها .. هوذا الفن .. انظروا .! هذا رأس فلاحة مصرية حقيقية . ! فلاحة مصرية . ! تاملوا .. اما هكذا واما .. فلا فن ولا فنان ! ! »

انه التزام ملامحي على غاية من السطحية والغلافية :

أن نحاول رد الفردي الى العمومي ، ومزج الخصوصي بالمشترك ! !

ان الفنون الفردية ستظل تخاطب الفرد حتى ولو ارتبطت ارتباطا حاسما بفن الاعلان . !!

وفي هذا المقال حاولنا ان نضع للالتزام حدودا من ناحية خصوصية الفنون وعموميتها ..

فهل نجحنا ؟ !

غير ان ذلك لم يكن مقصودا ، وغرضنا الوحيد هو اثارة الموضوع ، فقد يخرج لنا من يدلنا على الخطوط الفقيرة في كلمتنا ويفضي الينا بالسر المطموس !

نغما سائبا مطموسا معذبا وضائعا في المطلق .. افنستطيع ان نعلن عن عدم رضانا بهذه العودة المضنية ؟! وما يكون جدوى هذا الرفض ؟ اننا نغني لاننا نحس بحاجتنا الى ذلك، وهذا الحس الذي هو بليد بقدر ما هو رائع يمكنه ان يلاشي رياضتنا الهندسية .. : المنطق ؟

هذا تهويش .. ان ميداني هو الروح !! فكيف نعارض الموسيقى اذن ؟!

اذا فصلنا كيان الفنون الى كومتين مختلفتين ، وجدنا في الاولى : الرسم . الموسيقى . النحت . الشعر (بصفته النغمية) ثم في الثانية : الرواية . المسرحية . القصة القصيرة . المقال ..

فاذا تأملنا هذه المجموعة اكتشفنا ان الفنون الاربعة الاولى هي فنون حواسية ، بمعنى ان نسبة انتمائها الى حاسة الانسان اكبر من نسبة انتماء الفنون الاخرى ، فالتصوير بدون بصر لا يعتبر فنا ، وكذلك الموسيقى بدون اذن .. اما المقال او الرواية فهي فنون تعتمد الحواس كعملية احالة ، او كوسط ينتقل فيه العمل الفني في مروره الى الذهن ، فيمكن لنا ان نستمع الى مقال او رواية .. ولكن يستحيل ان (نبصر) الموسيقى او (نستمع) الى اللوحة !!

فالفنون التي اتفقنا على تسميتها بالفنون الحواسية تتبع في صورة مطلقة حاسة بعينها تنتمي اليها وترتبط بها ..

وأول الخصائص التي للفنون الاخرى ، ولنسمها الفنون الكتابية اي المقال والمسرحية والرواية ، هي اتصالها المباشر بذهن الانسان ، فنحن حين نقرأ كلمة ما نستعمل اذهاننا المواكبة لعيوننا فكأن هناك سيلا من الكلمات تعبر طريقا من بناء الى بناء آخر مواجه .. سيلا مستحيل التوقف فكل كلمة لها معناها التاريخي الذي لا يتغير ، فالعمل الكتابي هو الاتصال المباشر بطريق اثارة مباشرة. اما العمل الفني الحواسي فيلتزم ترجمة داخلية تنقل سيل النغم الى حجرة خاصة للشفرة ، ثم الى حجرة خاصة حيث تسكن النفس ، وكل حجرة للشفرة خاصة بالفرد تختلف عن جميع الحجرات التي للافراد .. كلها له مفتاحه الخاص وذوقه الخاص ومنطقه الخاص . فهذا النغم الذي اذوقه انا بطريقة خاصة يصبح على غاية من الاختلاف الشكلي والبنائي والقصدي عند مستمع آخر !

اننا ننقل الاثارة باللغة الفنية ، اي نستمع الى الموسيقى ثم نحاول ترجمتها ، اي وعيها ، وكذلك اللوحة المرسومة فنحن نتقبل هذا الشكل اولا ، ثم نحاول استدراجه الى داخلنا ليمكننا فحصه . اننا نقبل اللوحة والنغم قبولا مشروطا بداخليتنا ، ثم اذا جاءنا القرار بالقبول من الداخل، اصبحت هذه الفنون ملكنا تشاركنا حياتنا وسأمنا وضياعنا ..

فاذا امكن الرضى عن هذا التقسيم الجغرافي للفنون امكننا ان نقول : اذا كان الفن الكتابي موصلا مباشرا بين كلمة الكاتب وذهن القارىء ، امكن له ان يكون النداء الحركي الذي يقرر فاعلية القارىء ما دامت كل كلمة مكتوبة لها معناها التاريخي العام الذي لا يتطرق اليه الانحراف او التدجيل .. فالفن الكتابي هو محرك القارىء ودافعه، وهذه ميزته الاساسية فهذه الجملة لا تحتمل تأويلا او ترجمة : نحن قذرون(*) ..!!

فالفن الكتابي له هدف واحد ، هو نقل القارىء من سكونه الجاهلي الى حركة فاعلية واعية ، وهذه الاحالة هي ارشاد وتعليم . اما الفنون الحواسية فلا يمكنها ان تكون كذلك ما دامت تترجم في كل ذات ، حسب ثقافتها ومنطقها ورؤيتها .. مع ملاحظة ان الارشاد والتعليم خطة موضوعية عامة ، لا تدخلها التفسيرات الخصوصية او الفردية .. فمستحيل غاية الاستحالة ان نكتب ـ كما نكتب رواية بروليتارية ـ سيمفونية بروليتارية ، او نرسم لوحة اشتراكية !! ومن هنا امكن ان نلاحظ سبب فشل شوستاكوفيتش وجيراسيموف ..

والا .. فلو امكن حقا للوحة المرسومة ان تقول (نحن قذرون) كما يقولها المقال او الرواية ، فلماذا يتكلف الرسام او الموسيقي كل هذا الجهد في اختيار القماش والاطار ثم الالوان والخالط .. او التخطيط المبدئي للميلودي ثم اختيار الآلة ومجموعة الالات المصاحبة ، ثم كتابة التنغيمات القاعية، والقرار ، ثم التنويعات التطويلية .. واخيرا وضع كل هذه

(*) فليطمئن بال القارىء . (فنحن) هذه تعني الفرنسيين في مقال رائع عن الجزائر للكاتب الفرنسي جان بول سارتر ، وترجمته الاداب .

صدر حديثا عن دار الآداب

الشاعر الكبير نزار قباني

في دواوينه الثلاثة النافدة

أنت لي

سامبا

طفولة نهد

في طباعة انيقة مترفة ستكون زينة لكل مكتبة

المشاكل في هارموني اطاري ! لماذا يتكلف الرسام او الموسيقي كل هذا النصب والقرف في سبيل ان يقول (نحن قذرون) في حين يكفي لذلك ان يكتب هذه الجملة نثرا في جريدة سيارة ؟!

العمل الفني الكتابي يخاطب عمومية القاريء ، يخاطب عاليته ، والجانب الجماهيري فيه .. لان للكلمة معنى واحدا يفهمه كل قاريء كما يفهمه الاخر (باستثناء الكلمة الشعرية) اما الفن الحواسي فيعلن عن رضاه بخصوصية الناظر والمستمع ما دام يترجم حسب كل مزاج ، وطالما انعدمت العمومية التي نلقاها في الكلمة ، فليس لضربة الفرشاة باللون الاحمر عند هذا الرسام نفس معنى ضربة الفرشاة باللون ذاته عند رسام آخر .. لان الفن الحواسي يخاطب فرديتنا ولذلك نترجم حسب مزاج كل فرد منا وفهمه وثقافته الاعمال الموسيقية او المرسومة بغير ان نرضى عن فهم يكون عموميا لهذه الاعمال .

اما (بستان الكرز) فهو الروسيا القديمة التي تتطور ، فمن يمكنه ان يسخر من هذا المفهوم المنطقي لمسرحية تشيخوف العظيم ؟! غير اننا نعجز عن وضع تفسير عام للكونشرتو الاول للبيانو لجريج عجزا فاضحا !!

الفن الكتابي عام ، والحواسي خاص ، ولذلك لا يحتمل رسالة او نصوصية ، وبعبارة اخرى لا يحتمل فكرة الالتزام ما دام موجها الى الفرد وليس الى عمومية الافراد ..

يجب ان يكون العمل الكتابي ملتزما لانه اشتراك الاخرين في منهاج حر ومتطور وعملي ، لانه البث المباشر لضرورة العصر .. لانه نبوءة التقدم ، الجسر بين الحرية وفجاجة الاخرين ...

وما الذي سوف تقصده الكلمة ان لم تكن ملتزمة ؟! هذه الكلمة التي تملك وجها واحدا بدون مواربة .. ما الذي من اجله وجدت فوق فراغ الصحيفة ان لم تكن من اجل معناها المباشر العمومي ، المفهوم من الجميع ، والمرضي عنه من الجميع ؟!

ولكن الالتزام الذي هو حقيقة الكلمة لا يمكنه ان يكون حقيقة الفنون الحواسية ، لانه ليس لها صفة العموم ، فاللوحة الملتزمة هي عمل اكثر غثاثة واضحاكا من الذي حاول ان يعيد رسم الجيوكندا بأصابع قدمه اليمنى .. أي سخافة ؟!

من الذي يدلني في سمفونية البروليتاريا هذه ، عن المقطع الذي ينبيء عن هذه الطبقة ؟! هل هناك لحن خاص بالعمال يمكن اكتشافه ورصده ؟!

كان هذا يصبح صحيحا ، لو كان ممكنا ان نكشف الالتباس فيما اذا استمعنا الى (بجعة تيونيلا) لسيبيلوس ، مرة تحت هذا الاسم ، ومرة اخرى تحت اسم (الينبوع الازرق) مثلا !!

كان يمكن ان نكشف الخطأ ، اذا كانت للموسيقى نفس الحدود التي للكلمة ...

ولكن الذي يحدث هو اننا لن نستطيع الكشف او التأكيد بأن هذا العمل هو (البجعة) بدلا من (الينبوع) !!

وهذه خلة الفنون الحواسية .. وليست غلطتنا كناظرين او مستمعين !

ان الموسيقى هي الموسيقى ، وليس معناها ، وباعتقادي ليس اطلاق الاسماء على المؤلفات الموسيقية الا بقصد تعريفها والعمل الموسيقي الحقيقي هو الذي ينال رقما بدون شروحات .. وكذلك الشعر الذي هو اقرب الفنون الى الموسيقى ، وان الشاعر ليعجز عن الافصاح بكيفية تلقيه للنغم ، ولا بد ان نعترف بأن خيط النغمية يؤثر في المعنى ، وفي اللفظة المختارة ، ويمكن لهذا السبب تفسير المنحنيات النفسية للشاعر ، ويمكن احيانا تفسير غموضه وتسيبه ..

الشاعر ملحن لفظي ، وهو لذلك اكثر غموضا من الملحن الموسيقي ، فاذا كانت النغمية مطلوبة من الموسيقي لذاتها ، فالمطلوب من الشاعر هو النغمية + المعنى اللفظي ...

فتأملوا كيف يمكن لطاقة ان تحول النغم فكرا ، وان تلحن الفكرة !! ولذلك يمكننا ان ندرك لماذا يعالج الشاعر فكرة تافهة في اكثر من خمسة ابيات ، بدون ان يستطيع اختصار ذلك والحد منه .. فهذه المداخل والمخارج والخلفيات والاستطرادات التي يصطنعها هي افكار قريبة للفكرة الاساسية التي كان يزمع عرضها ، بيد انها تأبى ولوج هذا الشكل من النغمية وهو لذلك يطوع الفكرة ، بل ويغيرها في سبيل حشر الفكرة الجديدة من النغمية التي تطن في داخله

وليس المطلوب ابدا من الشاعر ان يكون بطلا وأن يحارب من اجل الحرية وأن يلتزم وأن يكافح ، فكثيرون من الشعراء لا يتحدثون الا لماما عن البطولات السياسية ، وهم

تاريخ
الفلسفة العربية

بقلم

حنا الفاخوري
رئيس كلية لبنان

خليل الجر
دكتور في الفلسفة

كتاب جديد يتناول بالبحث الرصين ، والتحليل الوافي ، جذور الفلسفة العربية ، وأهم مدارسها وأشهر رجالها بالاستناد الى أوثق المصادر والى النصوص المحققة

يطلب من
دار المعارف - بيروت
بناية العسيلي السور ص.ب ٢٦٧٦ - تلفون ٢٢٥٧٤
ومن جميع المكتبات الشهيرة

مع ذلك من كبار شعراء عصرنا .. وكثيرون ايضا يكتبون شعرا (معاركيا) ساقطا في النثرية وذلك من اجل زيادة حصة الفكرة على حساب النغمية التي يسقطونها بدعوى الاشتراكية ؟! وهل يمكن للشعر ان يتكلم نفس لغة النثر بدون ان يفقد فنيته ؟.. على ان هذا يحتاج جهدا يعسر حتى على العملاق الذي كتب (هاملت ، وماكبث) فما بالك بشعراء الدرجة التاسعة والثامنة ؟! ولذلك نقرأ بضع عشرة قصيدة عن المعركة ، وبور سعيد ، كلها سقط ونحش وبشاعة ونثر وموت من الضحك !! على حين كتب الشاعر التركي (!!!) ناظم حكمت قصيدة عجيبة « يا عيني .. يا حبيبي !! »(★)

وكذلك الرسام والنحات : ان عليهما ان يعيدا في غير انقطاع ترديد النغمة الجمالية والاخلاقية التي وقف في طريقها السرياليون والوحشيون والتكعيبيون ، واخيرا التجريديون .. فما هي اللوحة الملتزمة ؟ اهي نداء اخلاقي؟! غير ان اللون لا يمكن ان يكون الا لونا ، وكذلك الموضوع المختار والضياء والقاع وهارمونية كل هذه التقاسيم .. فما هو المقصود باللوحة الملتزمة ؟!

(★) هذه ترجمة منثورة لها ، ويمكن الحكم على قوتها في الاصل من قوتها مترجمة . فقط لاحظوا فنية التناول :

« ائمة حد لعدد السفن في بور سعيد ؟!
ان الشمس لقريبة من بور سعيد ، والسحاب بعيد
وعزيزي منصور في العاشرة من العمر ،
حافي القدمين ، حاسر الرأس ،
يلمع الاحذية في بور سعيد
احذية ، وجزم طويلة ، وشباشب
متربة .. موحلة .. لا رجاء منها ،
مهراة ... قديمة
تخطو نحو الصندوق ذي المرايات .
..وتتطاير الفرش ، ويشع المخمل الاحمر .
احذية وجزم طويلة ، وشباشب
بهيجة .. زاهية ، وفتية
مضيئة ، وبراقة
تهبط من الصندوق ذي المرايات!
عزيزي منصور اسمر ونحيل
مثل نواة البلح
عزيزي منصور حلو
يغني دائما اغنية واحدة
« يا عيني .. يا حبيبي ! »
لقد احرقوا بور سعيد ، وقتلوا منصور
فقد رأيت صورته في الصحيفة هذا الصباح ...
والجثة الرقيقة بين الموتى ..
يا عيني .. يا حبيبي
مثل نواة البلح !!

ترجمة : غائب طعمه فرمان

انني لا اعري ذاتي اذ اقف بازاء رسومات معلقة، فأنا هنا، وهي هناك ، بموضوعها وقلقها وروحها الذاتي .. انا هنا وهي هناك ، فمن كل ذرة في جسدي ومشاعري يخرج القرين الذي يقابل الذي خرج من كل ذرة من جسد الرسام ومشاعره ، فمن هذا اللقاء الشعري بيني وبين الرسام عن طريق اللوحة يمكن لي ان اكتشف اخلاقه ورؤيته للعالم ، فاذا شاءت الصدفة ان تجعلك تفكر بصوت مسموع امامي معبرا عن رأيك ومدى تذوقك للوحة ، فلا يمكن ابدا ان يكون هناك وفاق بين رأيينا ، فأنت هو انت ، وقد رأيتها كذلك ، وفهمتها كذلك .. وقد رأيتها انا بشكل مختلف ، وفهمتها كذلك بشكل مختلف ! انت والرسام ضدي ، وأنا والرسام ضدك ، والرسام المسكين معي ومعك ، ومع كل فهم وذوق ، فعليه ان يكلم العمومية في خصوصية كل فرد بالذات .. عليه ان يخاطب المشترك بينه وبين كل انسان ، وكذلك النحات الذي هو رسام يملك بعدا ثالثا ، مأساته في خصوصية هذا الاعلان المشترك بينه وبين قلق الناظر ..

الفنون الحواسية تبحث عن رسالات ، وبحثها الدائم هو شركها المبطن بالخز .. ففي اللحظة التي يدعي فيها الفنان الحواسي اكتشافه لالتزامه ، سقطنا نحن في الشك الابدي ..!

فاذا كان هذا النغم الذي نسمع اليه كلنا هو صورة عن المجتمع الاشتراكي ، صورة مباشرة وبدون ترجمة ... أفليس صحيحا اذن ان يكتشف هذه الحقيقة كل من يستمع الى هذا العمل ، في عزلة عن فهم الاخرين ، كما يحدث للقصة او المقال ؟! ولكن الجواب يختلف عن افتراضنا ..

ولن يستطيع احد المستمعين في عزلة ان يكتشف معنى هذا اللحن الاشتراكي حتى بمساعدة المؤلف ! الفنون الحواسية لا يمكنها ان تكون ملتزمة ، او أن تحمل شعارات معينة ، ما دامت فردية الجمهور ..

اما الفنان الكتابي ، فما الذي سوف يعلن عنه ان لم يكن دعوى ضد التأخر والتقليدية ؟ وماذا يمكن ان نسمي نثرا يسفسط فيما لا هدف له ، او في جماليات خصوصية ؟ ان على هذا الفنان الملتزم الذي يستخدم الكلمة ان يراعي دقتها وصراحتها ، فلا يمكن لها ان تكون مالكة لوجهين متنافرين او معنى مزدوج الدلالة ، فهي مستقيمة كخيط مشدود وبعيدة عن ان تكون مرموزة ...

فاذا كان الفنان الكتابي مدافعا عن الحرية، فليكتب دفاعه مضيئا ومشتعلا . قاسيا وعنيفا والا فليعلن افلاسه، ويذهب لاصطياد السمك ، فذلك عمل هو اكثر جدوى ..!!

القاهرة — **محيي الدين محمد**